عمر فاخوري ومعنى الصداقة بين الشعوب

بقلم رئيف خوري

لسبع سنوات خلت ، في صباح الاربعاء ، ٢٤ نيسان سنة ١٩٤٦ ، حمد ذلك النور المشرق المتلألىء في عيني عمر فاخوري وقلبه، لكن ليستمر الى ما شاء الله مشرقاً متلألئاً في تلك السطور التي ابدعها ارثا للأجيال ، يشمخ الى ذرى باذخة من القوة والعمق والجمال .

واليوم حين تدنو الذكرى السابعة لوفاة عمر فاخوري، أراني مستعيداً ، في جملة ما استعيد ، تلك الكلمة الموجزة التي القيتها على قبره لمناسبة ذكرى وفاته الرابعة سنة ١٩٥٠ ، وهذا نصها:

« هنا تحت هذا التراب الكريم يثوي رجل . لقد تحدثنا ، وسنتحدث كثيراً ، عن قيمٍ مثّلها في ادبه وحياته . كان لواء مرفوعاً من ألوية اللغة العربية والعروبة ، وكان علماً خفاقاً من اعلام الشعور الوطني اللبناني الصحيح ، وبالتالي كان عدواً لدوداً للطائفية ، عدواً لدوداً للنازية والفاشستية والاستعمار والحروب الاستعمارية . وكان صديقاً ، جندي فكرٍ ، للاستقلال الوطني والديموقراطية والاشتراكية . وهما عداوة وصداقة أدنا به — منطقياً — الى مصادقة جميع الشعوب الحرة، والمحبة للحرية ، وفي رأسها الاتحاد السوفياتي.

« لكن بعد ان يُهتف بهذا كله ، يبقى شيء من عمر فاخوري يجب أن يقال . هي الأمم يأخذ بعضها من بعض ، ويسترشد بعضها ببعض ، وهي الافكار ينتصر منها في عصر من العصور تيار توجب انتصاره قوى العصر الصاعدة ومطالبه الملحة . على ان هذا كله لا يفسر وحده قيمة الظاهرة الرائعة التي تدعى عمر فاخوري . لا يفسر قيمة هذه الظاهرة الرائعة الا ان نقول انها فكرة انسانية تقدميّة حرة تمثلت في عبارة وطنية عميقة الطابع الوطني.

« والعبارة الوطنية هذه ما زالت عظيمة الأهمية في حياة الشعوب ولا سيما شعبنا .

ومن اقرب البراهين على ذلك ان القيم التي مثلها عمر فاخوري قد دان بها عندنا عدد قبله ، وسيزداد من يدينون بها بعده ، ولكن ليؤذن لنا ان نقول ان عمر فاخوري سيبقى هو عمر فاخوري وحده ، بوصفه عبارةً وطنية عبقرية .

« وذلك ليس اصطناع ترضية فارغة لشعورنا الوطني ولا ذهاباً مع زهو باطل ، ولا انقطاعاً عن سير موكب الامم وطليعتها الحرة ، ولكنه اصرار على إذكاء ثقة الأمة بنفسها وإرهافٌ لاحساسها بانها امة منجبة .

« ونحن بهذه الروح نكرّم عمر فاخوري . نكرمه فكرة انسانية تقدّميّة حرة ، منتصرة ، تمثّلت في عبارة وطنية عبقرية، عميقة الطابع الوطني ».

أستعيد اليوم هذا الذي ألقيته يومذاك على قبر فقيد الابداع الفكري والفني ، فلا أملك ان أقول لنفسي : ساذج حقاً من يعتقد الألفاظ قد جُعلت دائماً سبيلاً للتفاهم ، فانها كثيراً ما تكون سبباً الى سوء الفهم وسوء الافهام حتى يجد المتكلم نفسه قد ظلم الذين يتكلم عنهم ، والذين يكلمهم ، ثم بعد هذا كله لم ينصف نفسه . فلقد ذكرت في هذه الكلمة ان حقيقة عمر فاخوري أدّت به منطقياً الى مصادقة جميع الشعوب الحرة والمحبة للحرية . ولكني لم أفطن ان أسأل نفسي ، ولا خطر لي واجبٌ ان أسأل نفسي : ترى ماذا أريد بمصادقة الشعوب الحرة والمحبة للحرية ؟ وماذا أراد عمر فاخوري نفسه بهذا التعبير ؟ ثم ماذا عسى ان يفهم بهذا التعبير السامعون والقراء جميعاً ؟ أتراهم يفهمون به المعنى الذي أردت اليه أنا، ام الذي اراد اليه عمر فاخوري ام تراهم لا يفهمون إلا المعنى الذي سلف له ان علق بأذهانهم ؟

وهكذا لم أنصف نفسي ، ولا أنصفت السامعين والقراء ، كلا ولا أنصفت عمر فاخوري ، حين أطلقت الكلام هذا الاطلاق ، فلم ألتمس له المعنى الذي شاء ان يقيّده به تقييداً .

والواقع ان الأديب العظيم لم ينسَ ان يقيّد هذه الصداقة، صداقة الشعوب الحرة والمحبة للحرية ، بمعنى صريح جليّ ، بارز الحدود ، لا مجال فيه للَبْسٍ او إبهام . فلنسمعه يقول في استقبال السيد جاك غريزا ، احد الشيوعيين الفرنسيين ، يوم زار « غريزا » بيروت إبان الحرب العالمية الأخيرة :

« تلك الصداقة التي نرحب بها ، والتي لا محل لسواها لا في عقولنا ولا في قلوبنا ، صداقة الوطن المستقل لوطن مستقل ، والشعب الحر لشعب حر ، والجماهير العاملة لجماهير عاملة. ليست صداقة فئة هنالك لفئة هنا هي أحرى بان تدعى « شركة » اي : ان تسمى باسمها . » (الحقيقة اللبنانية ، طبع دار المكشوف ، ص ٦٨ — ٦٩) .

ولست أتصوّر ان أحداً تبلغ به الوقاحة ان يدّعي انهذا الكلام كان يُستَبْدَلُ منه حَرْفٌ بحرف ، لو ان جاك غريزا كان شيوعياً انكليزياً او اميركياً او يوغوسلافياً او صينياً او روسياً .

واذاً ، فهذه الصداقة التي هتف بها عمر فاخوري بين الشعوب الحرة ، والمحبة للحرية ، الصداقة التي لم يكن لا في عقله ولا في قلبه ، محلّ لسواها ، هي صداقة الوطن المستقلّ لوطن مستقلّ ، والشعب الحر لشعب حر ، والجماهير العاملة لجماهير عاملة . وليست صداقة فئة هنالك لفئة هنا هي أحرى بان تدعى « شركة » .

وبعبارة أخرى ، ان الصداقة التي رسمها عمر فاخوري لا تعني تبعيّة منا لأحد ، ولا تعني واسطة انتفاع لفئة هنا مأمورة لفئة هنالك . ان الفرق لبعيدٌ بين الصداقة في جهة ، والتبعيّة والمأمورية في الجهة الأخرى .

فاذا تحدث أحد عن صداقة عمر فاخوري للشعوب الحرة أو « الدول الحرة » أو « الأحزاب الحرة » ، أيّاً كان شكل التعبير ، فلا يحاولنّ ان يُهرّب تحت ستار لفظ الصداقة معنى التَبَعيّة والمأمورية منا لأي إرادة خارجية . تلك « صداقة » لم يكن لها محلّ لا في عقل الرجل الكبير ولا في قلبه .

وعمر فاخوري الذي قال ، وصدق حين قال :

« لم يبق في وسعنا اذا نحن فكرنا في وطننا وفي شؤونه الحاضرة والمقبلة ، ان نفكر لبنانياً ولا عربياً حتى ولا شرقياً وحسب ، فلا مندوحة لنا ان نفكر دولياً وعالمياً وانسانياً . اننا ككل شعب من شعوب الدنيا لفي مأتم الحرية وفي عرسها على السواء . » (الحقيقة اللبنانية ص ١٧٠ – ١٧١)

عمر فاخوري الذي جلا بهذا البيان المشرق والعمق في التفكير ، هذه الحقيقة العصرية في حياة الاوطان ، عمر فاخوري نفسه لم يلبث ان قطع السبيل على بعض اصناف الأميين الذين يحمّلون كلامه ما لا يريد ان يحمله من مقصد ، فقال :

« لقد أتى على لبنان زمن وهو يتخبط في حيرته ، ولا يفتأ يبحث جاداً عن ذاته ، تارة مشرّقاً وتارة مغرّباً . فوجد ذاته اخيراً ، لكن حيث يجب ان يجدها ، اعني : في لبنان . ولعمري انها للقية لا ينبغي لنا ان نضيعها ، فالله يعلم متى نجدها مرة ثانية إذا أضعناها هذه المرة . ان اللبنانيين يلتقون اليوم على الصعيد الذي يسمونه الوطنية أو القومية . فكأني بهم اخوان تلاقوا بعد تغرّب طويل ، محفوف بالمخاطر والأهوال ، فطفقوا يحيي بعضهم بعضاً ويتباشرون بسلامة العودة ، ثم يتعاهدون جميعاً على ان لا يبرحوا ذلك الصعيد الطيب ، مخافة ان يتورطوا في شبهات التخوم التي تقيمها الفوارق من جنس ومذهب ودين . قلت ذات يوم : إن في لبنان بين المذهب والمذهب ، وبين الجنس والجنس ، من الحدود والحواجز ، ما يحتاج معه الى جوازات سفر ، كأننا شعب في شعوب ، وأوطان في وطن . نحن لسنا في حاجة الى ما يفرق ويقطع ، فما اكثر هذا عندنا ، بل إلى ما يؤلف ويجمع . إن ذلك الروح اللبناني الذي يتجلى في إرادة اللبنانيين على اختلاف طوائفهم وأجناسهم ان يعيشوا معاً ابناء شعب واحد حرّ ، في وطن واحد سعيد – ان ذلك الروح الجديد ليؤلف ويجمع . بل ليس إلاه يؤلف ويجمع . فما أجدرنا ، إذاً ، بان نتعهده بالصون والرعاية ، وان نغذيه بالعقول والافئدة ، حتى ينمو ، ويبلغ اشده ، فلا تخشى عليه عوادي الزمان » .

وهذا الكلام الذي رفع به عمر فاخوري منذ أول عهد الاستقلال ، سنة ١٩٤٣ ، شعاراً وطنياً ، مبدئياً نيّراً ، هذا الكلام إذا عنى شيئاً فانه يعني قبل كل شيء : ان لبنان إنما يجد ذاته في لبنان نفسه ، أي : في إرادة اللبنانيين جميعاً ان يعيشوا معاً أبناء شعب واحد حر في وطن واحد سعيد ، لا تفرقهم عصبية جنسية أو دينية ، ولا يظلم بعضهم بعضاً ، ولا يكون بعضهم عثرة وشقاء لبعض . وهذا الكلام بدوره ، إذا عنى شيئاً ، فانه يعني قبل كل شيء : ان الأوطان لا يتم خلاصها إلا بايديها وقواها نفسها . فلبنان شأنه شأن غيره من الأوطان ، لا يتم خلاصه بان يظل شاخص الأبصار إلى خارج حدوده مشرّقاً أو مغرّباً . ويعني كذلك ان خلاص لبنان انما يتحقق بالاعتماد على الروح اللبناني الجديد الذي يؤلف ابناء لبنان ويجمعهم ، ويحيي قوى لبنان ويصبّها في سبيل واحد ، فيكون ذلك اساساً متيناً لاستقلال لبنان وحرية لبنانية ، أساساً يصمد على عوادي الزمن لانه اساس داخلي وطني لا يتعلق بأهواء خارجية .

وقد تبدو هذه النظرة لأول وهلة ضيّقة محصورة الافق . لكن اذا صح كما يقول جوريس : ان كثيراً من الوطنية يقود الى الاميّة ، فصحيح ايضاً ان كثيراً من الأممية يقود الى الوطنية كنقطة ابتداء – الوطنية التي ترى خلاصها بيدها ، وتقاوم من يستعبدها باسم الاستعباد سافراً غير مقنّع ، ومن يستعبدها باسم انه يحررها . فلقد كُتب للحرية ان تكون كفاحاً على جبهتين !

رئيف خوري